الخطاب الأنثوي بين ذكورة الدال و فتنة المدلول

الدكتور: جويني عسال

جامعة العربي التبسي– تبسة – الجزائر

ملخص البحث

إن البنية المفاهيمية لفكر مابعد البنيوية يحيل إلى تجاوز مقولات السياق والانغلاق الثقافي, والتأسيس لفضاءات إبداعية جديدة قائمة على التجريب المستمر و المراجعة والتساؤل والنقض لأشكال الثابت والنمطي في الثقافة بشكل عام ,والكتابة الإبداعية بشكل خاص.

ولقد تأسست عن المرأة –في المخيال الجمعي ومنظومة الأفكار– صورة ,صنعها الفكر الذكوري ورسخها في البنى الاجتماعية .وقد تم إقصاؤها وتأجيل كينونتها باعتبارها تمثلا هامشيا ,فكانت مدلولا موضوعيا متموقعا ضمن ثقافة ذكورية متمركزة حول ذاتها ومنبنية على أحادية في التصور وإنتاج المفاهيم .ضمن هذا المنحى كانت هذه الورقة البحثية قراءة للرؤية الابستيمولوجية لواقع المرأة ضمن جدلية المركز والهامش في سيرورة الانتاج الثقافي عبر التاريخ.

Abstract:

The conceptual structure of the poststructuralist thought surpasses the contextual statements and the cultural seclusion, and the establishment of new creative spaces based on continuous experimentation, review, wonder and repeal of fixed and typical forms of the culture in general, and creative writing in particular.

In the collective imagination and system of ideas, there has been established an image for woman made by the male thought and firmed in the social structures. She has been excluded and her being has been postponed as she is a marginal representation.Thus, she has been regarded as an objective signified, positioned within a male culture centered on itself and constructed on mono perception and concepts production. In this way, the present research paper treats the epistemological view of the reality of woman within the Center/Margin Dialecticin theprocess of the cultural production throughout history

- **تمهيـــــد:**

إن الانفتاح على فكر ما بعد الحداثة وتقويض المركزيات وإعادة الاعتبار للهامشي والمقصى ,جعل المرأة تؤسس لحضورها في واجهة الكتابة الإبداعية

المعاصرة ,إذ خاضت مناطق لطالما أنكرتها الثقافة الذكورية ,فكان الطابو أهم الموضوعات التي شكلت بؤرة الإبداع الأنثوي.

ويبدو أن كينونة الأنثى في الثقافة حتم عليها مواجهة الممنوع الذكوري واختراق اللامفكر فيه ,الذي تأسس وفق خطاب الحكايات والمرويات (والنظر إلى المركزيات الكبرى في التاريخ الإنساني من زاوية كونها نتاج مرويات ثقافية متنافسة يوسع المجال أمام الدراسات المخيالية التي استبعدت بتأثير من فكرة الحداثة الغربية ,الحداثة التي لا تعدو أن تكون رواية من نوع خاص للتاريخ أنتجها المخيال الغربي المتخفي تحت غطاء العقلانية في ظروف خاصة) [1] فكان لابد من تقويض الأحادية في التفكير الاجتماعي من خلال الإبداع الأنثوي ,وتجاوز المعطى المؤسس وفق تجليات الحكاية المتخفية وراء (الستار السميك للمفاهيم والمناهج فتأخذ شكل تحليلات موضوعية ,أو تتجرد غاليا من ذلك فتكون مرويات سردية)[2].

لقد تشكل وعي مركزي جديد منح الأنثى حضورها في مجال الكتابة وبخاصة المتخيل السردي و نقد الثقافة الأبوية الذكورية، واقتراح رؤية أنثوية للعالم، ثم الاحتفاء بالجسد الأنثوي باعتباره تعبيرا عن وجود فيزيقي ولغوي ورمزي يؤسس للذات المفكرة, ويمنحها حضورها ضمن الراهن بعدما طغى الفكر الذكوري ثقافيا ودينيا وأسطوريا وجماليا وجعله يقع في المركز ,ويرمي بالأنثى في الهامش واللامفكر والمحتجب معرفيا .

ولهذا السبب بدأت الحركة النسوية في الظهور على الساحة الإبداعية بوصفها محاولة لتدمير الثابت في الثقافة الذكورية مثل المرأة الشيء والمرأة الدونية والمرأة المثال والمرأة الرمز ..لصالح بناء نموذج المرأة الإنسان, مما بلور ثقافة جديدة منحت الأنثى حضورها الثقافي والأدبي .

وقد أسهمت طروحات مابعد الحداثة (جيل دولوز, جاك دريدا, ميشال فوكو, آلان تورين) في هذا الحضور وترسيخ قيم جديدة قائمة على تجاوز الأفكار التقدمية و اليقينيات الكبرى فلسفيا واجتماعيا وسياسيا وصناعيا (ولئن كانت

النسوية تمثيلا للفلسفة الراهنة بشكل تام ,فإنها تحديدا وتعيينا تمثيل قوي لما بعد الحداثة بشكل خاص) [3] حيث صارت ضمن رهاناتها المعرفية وإحدى القضايا الإشكالية الراهنة , نظرا لما تمثله ثقافيا وإبداعيا , إذ لم تعد جزءا من الذاكرة التاريخية ,بل صارت تكتب هذا التاريخ وتعيد إنتاجه ,بل وصياغته كمشروع لأنسنة الأفكار والأشياء وتحقيق ثورة مفاهيمية جديدة في عالم تمركزت فيه الأنثى ,وصارت الكتابة فعل وجود لا فعل خلاص.

وبهذا (ولا زال النقد النسائي على صلة وثيقة بحركات النساء المطالبة بالمساواة والحرية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية) [4] من خلال تجاوز الحدود المصطلحية وتأسيس فضاءات إبداعية أكثر تحررا , مما يفضي إلى تشكيل وعي يجعل من الحضور الأنثوي فعلا في الذاكرة وتخطيا للسلطة البطريكية للمجتمع بممارسة النقد الحضاري الذي حسب هشام شرابي (بتركيزه على الظواهر الفكرية والأدبية والفنية ,يرمي إلى كشف التناقضات ليس في الوعي المهيمن فقط بل في كل التجسيدات والبنى والعلاقات التي تشكل القاعدة المادية للحضارة الأبوية) [5] التي مارست حضورها في المخيال الثقافي العربي ,مما يجعل طبيعة العقل المفكر ينتج بنية محكومة بسياج دوغمائي ,هي نتاج صيرورة الذاكرة التاريخية ,وتحولات الممارسة الاجتماعية.

إن التحول السوسيوثقافي للمجتمع العربي نتيجة الالتقاء بالآخر أفرز مفاهيم حضارية جديدة شكلت بنية الوعي الاجتماعي والثقافي ,وشكلت حقلا مفاهيميا جديدا له تمظهراته ونمفصلاته ,انطلاقا من فكرة الموت في الخطاب الفكري الغربي المعاصر: موت الخطاب النسوي ,موت التاريخ ,موت الميتافيزيقا ,موت الإنسان ..حيث دعا روجيه غارودي إلى تأنيث المجتمع ,وبناء تصورات ثقافية جديدة تفضي إلى تشكيل أنساق قادرة على تجاوز الحتمية الذكورية والقفز إلى مابعد النسوية التي ترى في اللغة بنية مغلقة على النسق الذكوري .

ولهذا أشارت بعض (الكتابات النسوية أن فكرة دونية المرأة متجذرة في مستويات اللغة من حيث بنية الجملة ومفرداتها ,أي أنها جزء مما يقال أي المضمون وكيف يقال ,أي الشكل واللغة ,فاللغة إذن تؤكد هذا الاختلاف في النوع ,بحيث يصبح الرجال في موقع الفاعل وبالتالي موقع السلطة ,في حين تكون النساء في موقع المفعول به ,بحيث لا يستطعن تجاوز التعبير عن فشلهن في أن تصبح لهن ذوات مستقلة)[6] , وهذا ما رسخ فكرة الإقصاء الأنثوي نتيجة إفرازات هيمنة النسق الذكوري ,الذي بلغ مداه مع موجة الحداثة ومابعدها ,حيث أصبحت منظومة القيم والمفاهيم خاضعة للتحولات الثقافية والجيوسياسية وبخاصة بعد اندحار الخطاب الفلسفي الكلاسيكي المكرس لبنية ذكورية ,إذ كرست فكرة موت الإنسان ونهاية التاريخ ,تلاشي الوهم الذكوري , وبداية النزعة النسائية كتمرد على الانغلاقية والدوغمائية.

المرأة داخل النسق: تمظهرات الوهم الذكوري:

شكل الخطاب الثقافي العربي عبر التاريخ رؤية مفاهيمية ,نتج عنها مركزية ذكورية وإقصاء للحضور الأنثوي ,سواء في البنية الفكرية أو تشكيل اللغة ,وتمثل اللغة اشتغالا على المركزي والهامشي , حيث (تأتي المرأة إلى اللغة بعد أن سيطر الرجل على كل الإمكانات اللغوية وقرر ما هو حقيقي وما هو مجازي في الخطاب التعبيري ,ولم تكن المرأة في هذا التكوين سوى مجاز رمزي أو مخيال ذهني يكتبه الرجل وينسجه حسب دواعيه البيانية والحياتية)[7],أي معنى يشكل خلاله حضوره في العالم ,وتصير الأنثى داخل الرحم اللغوي تدفع اللفظ نحو الخارج دون أن تكون فيه ,وتبني نسق اللغة دون أن تكون مفرداتها ,فهي المدلول المقصى في وجود الدال المركزي ,الذي يبتلع بداخله الدلالات التي تنتجها القراءة .

فالحضور الأنثوي يتمظهر على مستوى الترميز اللغوي لا البيولوجي (بل المعني بذلك وضعها كما يتجلى من خلال العلامات اللغوية منها بالأساس .وهو وضع معقد ,لأن الأنوثة تودع صورتها –بشكل تناظري- داخل مجموعة من

المفاهيم,وتستمد من هذه المفاهيم في الوقت ذاته سمات عدة هي ما يشكل في نهاية المطاف صورتها)[8],إذ تقوم اللغة بدورها الحضاري في ترسيخ البنى المفاهيمية للعقل ,وتشكيل الفضاءات السيميوطيقية لكل تمثل ذهني وثقافي ,كتأكيد الحضور المعرفي لفكرة الثنائيات التي تقصي الذات الأنثوية من بناء هويتها اللغوية والإبداعية ,حيث تصبح معطى مركزيا يتصدر الواقع المعرفي ,مع العلم أن مثل هذه التفصيلات الاجتماعية رسخها الفكر الذكوري وجعلها وعيا قائما على الإلغاء والإبعاد .

ولعل هذا الطرح فيما يخص المفهوم الأنثوي صار مندسا في تلاوين الوهم الذكوري الذي ارتبط بأنساق معرفية يصير الانطلاق منها وقوعا في مساحاتها المضادة ثم أكثر تمثيلا لها (إذ لا يجوز استعارة مفاهيم جاهزة من تراث أبوي مهيمن لتعريف كتابة ناشئة تتوغل في مناطق لم يعترف بها الفكر الأبوي ,فذلك سوف يجعلها كتابة شاذة عن قاعدة معيارية راسخة ,فيها من شروط المروق أكثر مما فيها من شروط الامتثال)[9],إذ ارتبط الحضور الأنثوي في كثير من الطروحات الفكرية ببنية مضادة للمركزية الذكورية ,وهو ما رسخ نوعا من القيم الحضارية المعادة ضمن المسار التاريخي المتشكل في الوعي المركزي لثقافة اتكأت في تمظهراتها وخصوصياتها على مفهمة أحادية نسجت شبكتها البنائية وفق شروط استجابت لها الأنثى كونها أعادت تأسيس خطاب مهيمن لم تجرؤ حتى على كشف مقولاته ومسار وجوده وتمثله.

وبالتالي فإنه (لا يجوز التوهم بأن الكتابة الأنثوية ينبغي أن تتوافر فيها دلالة مضادة للكتابة الذكورية ,فذلك إعادة إنتاج لمفاهيم الثقافة الأبوية بصورة مقلوبة ,وعليه تكون هذه الكتابة كشفا لما غيبته الثقافة المهيمنة ,ودخولا جريئا إلى المناطق التي صمتت عليها ,وتوسيعا للمناطق المجهولة فيها ,ثم الذهاب إلى الشك في المحمولات القابعة في طياتها)[10], وعليه فمحاولات التخلص من رمزية الذكورة أو إرجاؤها عمل في غاية التجني الأنثوي ,باعتبار أن تأسيس البديل المهيمن هو

بنية وهمية جديدة تنضاف إلى بنية أولى سلطوية,مما يقود إلى تشكيل صراع ثنائي بين وهمين ,أكثر مما هو بحث عن الحضور.

وعلى هذا الأساس فإن الرجل هو المركز ويقابله الفرع الذي هو المرأة ,بمعنى أن التمركز حول ميتافيزيقا الحضور,هو جوهر التمركز الذي كما يرى دريدا هو الذي شكل هذه الثنائية فالدال يظل ينحو نحو إرجاء دلالاته ومن هنا (فإن دريدا يصل بالاختلاف بين الدال والمدلول والانفصال بين عالميهما إلى أقصى نقطة ممكنة.

من هنا خطورة مقولة الاختلاف في المنظور التفكيكي ,لأنها تسمح بقيام اللعب الحر واللامتناهي للدوال ,وتعمل على تبديد فكرة الحضور التي تحكم كل محاولة للبحث عن معنى محدد ومدلول نهائي ,وهو ما يعني أنه لا وجود لمعنى يكون نهائيا وحاضرا ,بل إن كل معنى هو مختلف وغائب ومؤجل باستمرار)[11],فإذا كانت الأنثى مدلولا ,أي معنى متشكلا في المخيال الذكوري ,وفيما أنتجه من ثقافة قائمة على مركزية الدال وتأجيل المدلول.

المرأة بين نفي الإيقاع واحتضان السرد:

إن الفضاء الذي شكل الأنثى في الخطاب الثقافي العربي جعلها مرمية خارج فعل الكتابة ,ورمى بها إلى أقصى حدود اللغة ,(والشاهد التاريخي يشير إلى أن الرجل هو سيد الكتابة ,ولا يحفظ التاريخ أية أمثلة عن وجود نسوي فاعل مع اللغة المكتوبة .ومن هنا فإن الرجل وجه مسار الملفوظ اللغوي نحو وجه خاص تحكم الذكور فيه وخلدوه عن طريق نقشه وحفره في ذاكرة الحضارة ,وصار الحضور المذكر هو جوهر اللغة وتعمقت الذكورة في اللغة عبر الكتابة حتى صارت وجهها وضميرها)[12] ,فكأن الإشكال الفكري يقع بين ماهو شفوي وماهو مدون .فالمدون بصمة ذكورية ,إذ يضع الرجل يده على اللغة وشكلها الفيزيقي ,ويترك للأنثى الإطار الشفوي لتتحول إلى حلقة من حلقات الحكاية .

ولهذا ارتبط المكتوب في الثقافة العربية بالشعر الذي ينتج عن فحولة وفي حين أن الشفوي التصق بالحكي ,ليمنح للمرأة الفعل السردي ,ويترك للرجل الفعل الشعري ,ويثبت التاريخ الثقافي العربي أن المعرفة الشعرية أنتجها الذكر وأصبحت مركزا من مراكزه.

وعلى خلاف ذلك , ارتبطت المعرفة السردية بالمرأة ,فكانت حاضرة فيها بشكل جريء وحيوي ,بل وصارت مركزا خاصا بها ولا أدل على ذلك من حكايات ألف ليلة وليلة,وكيف استطاعت شهرزاد أن تؤكد سلطتها في توجيه الخطاب والقص الأنثوي,(فالقص هو الخطاب الزمني النموذجي ,ولهذا نجد شيئا من التوازن الجمالي والشكلي في صراع شهرزاد ضد المصير المحتوم الذي ينتظرها ,باستخدام أسلحة القص ,فهي تحارب الزمن بالزمن وبخصائص جنس أدبي ذي هوية زمنية)[13] ,لذا فوجودها الأنطولوجي مرتبط بمدى تحكمها في الحكي ,حيث لم يبق لها في مصيرها المجهول سوى قدرتها في تملك الآليات اللغوية للخطاب الحكائي الذي سيعيدها إلى المتن والمركز ,حتى وإن عد الحكي في الثقافة العربية خطابا هامشيا بموازاة المؤسسة الشعرية.

لقد تشكل الشعري ذكوريا على المستوى اللفظي وأنثويا على مستوى المعنى ,مما يؤكد أن الثقافة الشعرية التراثية كانت الأنثى موضوعا من موضوعاتها الحسية ,ولا يمكن أن يتشكل حضور المرأة إلا من خلال فهم تركيبتها ووجودها الأنطولوجي (ومن طبيعة جسدها ,لأنها تنتظم في سلسلة علاقات ثقافية ونفسية مع العالم من جهة ومع ذاتها من جهة أخرى ,وهي علاقات بمقدار ما كانت في الأصل طبيعية, فإنها بفعل الإكراهات التي مارستها الثقافة الذكورية أصبحت مشوهة وملتبسة)[14] ,إذ إن الكتابة هي وعي وجودي بالدرجة الأولى ,ومحاولة فهم لعلاقة الجسد بالعالم ,فكل الظواهر الإنسانية هي رمز للجانب الفيزيقي ,حيث يشكل الجسد في هذا المنحى المعرفي رؤية للبنى الاجتماعية ,وحقيقة وجوده ضمن

علاقة الذات بالعالم ,حيث تمظهرت الأنثى في الخطاب الشعري نسقا هامشيا لاعتبارات الثقافة المشكلة للذائقة الجمالية, التي تبدو رمزية في تمظهراتها.

ويظل مصطلح الذكورة مرتبطا ببنية ثقافية سائدة تشكلت ضمن منحى الثنائيات الذي شكل الوعي الابستيمولوجي للمجتمع ,من خلال صراع حضاري بين رؤيتين مختلفتين ,رؤية تقليدية وأخرى حداثية ,وقد أفرز هذا التوجه الخطاب المضمر في بنية الثقافة العربية ,إذ لم تتشكل ثنائية الأنوثة/الذكورة إلا مع هذا الإفراز الحضاري الجديد ,وهذا التأسيس الثنائي ليس وليد الثقافة العربية فقط ,وإنما هو قديم راسخ في الحضارات الإنسانية القديمة .

وقد أشار عبد الله إبراهيم إلى أن هذه الثنائية تشكلت في الفكر الأرسطي إذ يقول (طبق أرسطو مصطلحي الذكر والأنثى على الكون النظامي ,فتحدث عن الطبيعة بوصفها شيئا مؤنثا ,وأسماها الأم ,فيما أشار إلى السماوات والشمس بوصفها المحدث والأب .وتعلق الفكرة القائلة بأن كل ما هو أعلى ينبغي أن ينفصل بقصارى ما أمكن من قوة عما هو أدنى ,وهذا يفسر في عموم الفكر القديم لماذا تنفصل السماوات العليا عن الأرض الدنيا)[15] ,فالمرأة في التصور الإنساني القديم تتميز بالدونية لأن الطبيعة كما فسرها الإنسان الأول هي التي أخضعتها لهذه المكانة.

وأصبحت العلاقات الاجتماعية خاضعة للمفهمة والمواضعة الاصطلاحية ,و تصبح المرويات جزءا من بنية المخيال الشعبي باعتباره تعبيرا عما ينتجه الفكر الإنساني ضمن أنساقه الثقافية فيما اتفق عليه و(بإزاء هذا التصور حول كون البحث في سيرة النسق الثقافي هو بحث في منظومة المفاهيم والمصطلحات مستقرأة من بطن السرديات حين تحول المجتمعات تاريخها إلى مدونة سردية)[16] ,تحكي تفاصيل مسيرتها وتمظهراتها ,باعتبار أن الحكاية شكل من أشكال مأسسة الفكر وأدلجته في نطاق ثنائيات ضدية قائمة على صناعة فضاءات تمركز الذكورة وترمي بالأنوثة في أقاصي الوهم والنسيان.

الجسد وسلطة المعرفة:

تقوم المعرفة التاريخية على منح الذات حضورها من خلال فلسفة القوة ,وإرادة الوجود ,وإثبات الكينونة الخاضع للتواصل الاجتماعي والثقافي ,والمرتبط بالزمان كما يتصور هيدغر ,وبفكرة الدازاين ,أي الكينونة كوجود أول قبل كل شيء , ولذلك (فإن الدازاين هو كائن ليس فقط يعرض لنا من ضمن كائنات أخرى ,بل هو على الأرجح متميز من ناحية أنطيقية بأن الأمر عند هذا الكائن إنما يتعلق في كينونته بهذه الكينونة ذاتها ,ومن ثمة فإنه يدخل في هيئة كينونة الدازاين أنه في كينونته إنما له علاقة كينونة بهذه الكينونة)[17] ,أي الوجود الأنطولوجي كما يمكن أن يكون ,ويشكل الجسد أهم تصور يحدد الفضاء الفيزيقي للكائن ,كذا حدود المعرفة المشكلة له .

وعليه(فإن صورة الجسد هنا ماهي إلا صورة الذات التي تتغذى بالمواد الرمزية التي تموضع الشخص في إطار نسيج من التطابق التعالقي)[18] ,وقد ارتبط الإقصاء الأنثوي بفكرة الفحولة الذكورية التي تشكل وفقها بناء الثقافة العربية بكل مكوناتها المعرفية والإيديولوجية .

وانطلاقا من هذا التصور تأسس وعي مركزي جعل الأنثى محور الخطاب الهامشي كون المؤسسة الثقافية ذكورية بامتياز في إطارها اللغوي والمعرفي وحتى الأخلاقي ,إذ يفرض على المرأة أن تتشكل في إطار المنحى القيمي الذي يحدد شروط الأنوثة في علاقتها بالذكورة (ذلك أن تفكيرها يترتب ضمن النزوع التربوي الذي كرسته الأنوثة ,فلا يخطر لها أن تفكر بالجانب المسكوت عنه ,لأن تلك منطقة خارج الوعي ,وينبغي الامتثال للقيم الثقافية التي تقترحها الأنوثة على المرأة ,من أجل أن تمارس حياتها في المجتمع)[19]وبالتالي يمكن لهل أن تقوم بدورها كامرأة ليس إلا في علاقتها بمنظومة المفاهيم التي يحددها المجتمع ويبرر وجودها ,ودورها لا يتعدى الإثارة والعاطفة والرغبات .

وعليه فإن الدفاع عن شرعية الحضور لا يتأتى من خلال مبدأ التماثل ,وإنما بتحقيق فعل الكينونة المرتبط بالهوية الأنثوية داخل البنية الاجتماعية والثقافية ,ولهذا فإن (أبرز الظواهر التي لازمت الفكر النسوي في بواكيره الأولى ,الوهم القائل بالتماثل ,أي أن تصبح الأنثى حرة بمقدار محاكاتها للذكر ,وهي فكرة سرعان ما واجهت نقدا في الأدبيات النسوية ,حينما تبين أن الهدف لا صلة له بالتماثل ,إنما الاختلاف المانح لهوية الأنثى)[20].

خطاب المرأة والمخيال الاجتماعي:

يتشكل الوعي الثقافي من محمولات معرفية خاضعة لمنظومة قيم يؤسسها العقل الفاعل في ارتباطه بالمؤسسة الاجتماعية التي تحدد المفاهيم وتبني الأنساق المضمرة من خلال فضاء الخطابات المتداخلة وقد مورس الإقصاء على المرأة في المشهد الإنساني عبر التاريخ من خلال المرويات الكبرى كونها ذاتا بيولوجية تقوم بدور تضطلع به ضمن وجودها الاجتماعي ,مثلما يقوم الرجل بدوره كائنا بيولوجيا ,له مهامه وخصوصياته ,مما يشير إلى أن الأنثى (متمركزة حول ذاتها تشير إلى ذاتها ,مكتفية بذاتها تود اكتشاف ذاتها وتحقيقها خارج أي إطار اجتماعي في حالة صراع كوني أزلي مع الرجل المتمركز حول ذاته)[21],هذا وإن التاريخ البشري قائم على منظومة من المفاهيم تشكلت داخل وعي الرجل,وهو الذي أسهم في بلورتها من خلال المخيال الاجتماعي وضمنها أبنيته الثقافية العامة ,مما أقصى المرأة نهائيا من الحضور .

وبالتالي أفضى هذا التصور إلى إحداث شرخ في العقل الخالص بتعبير كانط ,وجعل السرد يثبت هذه الحقيقة التاريخية ,ويؤكد المركزية الذكورية , (وانطلاقا من هذه الرؤية للتاريخ ينادي دعاة التمركز حول الأنثى بالتجريب الدائم والمستمر ويطرحون برنامجا ثوريا يدعو إلى إعادة صياغة كل شيء :التاريخ واللغة والرموز ,بل الطبيعة البشرية ذاتها كما تحققت عبر التاريخ وكما تبدت في مؤسسات تاريخية وكما تجلت في أعمال فنية ,فهذا التحقق والتبدي والتجلي إن هو إلا إنحراف عن مسار

التاريخ الحقيقي)[22] والطبيعي ولابد من تعديل هذا المسار ,أي إعادة تفكيك البنى الثقافية قبل الاجتماعية ,بدءا من اللغة التي هي المؤسسة الأولى في تشكيل المفاهيم وكتابة تاريخ المعرفة .

حيث إنه من الطبيعي أن يبنى مسار إبداعي وثقافي تكون فيه المرأة جزءا من مكوناته ولها بصمة في كل ما هو مركزي وفاعل ,(وعلى اعتبار أن العقلية الذكورية في التاريخ كانت هي العقلية الثقافية المهيمنة على المجتمع ,وغابت في المقابل عقلية المرأة المؤثرة ,فإننا نجد أيضا فارقا جوهريا بين جسدي الرجل والمرأة في التاريخ واللغة ,فالجسد المذكر يمثل اللغة والتاريخ بقيمهما الإيجابية ,ليقابله الجسد المؤنث بوصفه قيمة ذهنية معلقة في فضاء اللغة والتاريخ)[23]وبالتالي فإنه يجب أن ينظر للمرأة كونها أنثى ثقافية لا بيولوجية,وهو ما يعني إزالة سلطة المجتمع البطريكي الذي يجعل المرأة جزءا في البنية الذهنية للرجل وتابعة لسلطته الذكورية,كونه يحدد مهامها وحدود حركيتها التاريخية , مما يؤسس للحياة الأسرية وفق نظام تسلطي تكون المرأة فيه هامشا اجتماعيا لا حضور له في الهرم التراتبي للأسرة إلا كونها حتمية بيولوجية دورها بناء الأسرة.

ومن هذه الزاوية (اقتضت مصالح السلطة الذكورية حصر المرأة في قيمتها بالنسبة إلى الرجل ,أي في دورها كأنثى ,كزوجة وكأم ,فتبدو الأنوثة حتمية بيولوجية مفروضة على المرأة تحصرها داخل الأسرة التي يرأسها الرجل وفقا لشروط ومتطلبات الرجل)[24] وبالتالي تتحول صفة الأبوية إلى سلطة مركزية ضمن المخيال الاجتماعي ويشار من خلالها (إلى علاقات القوة التي تخضع في إطارها مصالح المرأة لمصالح الرجل ,وتتخذ هذه العلاقات صورا متعددة بدءا من تقسيم العمل على أساس الجنس والتنظيم الاجتماعي لعملية الإنجاب إلى المعايير الداخلية للأنوثة التي نعيش بها .وتستند السلطة الأبوية إلى المعنى الاجتماعي الذي تم إضفاؤه على الفروق الجنسية البيولوجية)[25] ,ويعتبر هذا القانون السلطوي أرضية المنطلق التحرري الذي قامت عليه الثقافة النسوية ,وكان مركز الثورة المفاهيمية للمعجم

الفكري للمرأة الذي ثار على محاولة تخطي الجنوسة التي تمركز حولها خطاب الثقافة الغربي وأسس رؤيته لطابع الاختلاف الجنسي وفق معطيات ثقافية لا بيولوجية .

وهو ما يعني إرساء بنية معرفية مركزية مقابل أخرى هامشية ,ومقصاة خارج خطاب الحكاية ,ولهذا (فإن التمييز النوعي الجنسي (البيولوجي) بين الذكر والأنثى هو تمييز تركيبي مؤسساتي ثقافي وليس خاصية بيولوجية طبيعية)[26] ,وهذا ما جعل الحركات النسوية تسعى إلى تفكيك المقولات المتمركزة حول الجنس الثقافي ,وخلخلة البنى الذهنية التي تخضع الأنثى للهوية السوسيوثقافية, وعليه (سعت الدراسات النسائية لدحض دعوى هرمية العلاقة بين الذكر والأنثى التي اصطنعتها وأرستها الثقافة لكي تعطي الرجل قيمة لا تعتمد على غير تكوينه البيولوجي ,أما المرأة فتتدنى على السلم الهرمي لا لسبب سوى تكوينها الطبيعي)[27] ,حيث قام التقسيم الجنسي على التأجيل المعرفي ,لا الفارق الفيزيولوجي ,ذلك أن التصور القائم يفضي إلى خلخلة الواقع الثقافي وتمظهراته الاجتماعية.

العقل العربي ومركزية الذكورة:

إن الإشكالية التي يطرحها خطاب المرأة في الفكر العربي المعاصر متعلقة أساسا ببنية ثقافية ,لها تمظهراتها التاريخانية ,كونها محكومة بأنساق ومنظومات معرفية سوسيوثقافية ,وجب نقدها حضاريا ,وإعادة فهم تمثلاتها في إطار العلاقات الاجتماعية ,(من هنا كان بروز الوعي الاجتماعي الناقد ,وعي المجتمع لذاته وأوضاعه ,هو الشرط المركزي لتجاوز الواقع الأبوي وتناقضاته)[28] وتحديد الميكانزمات المتحكمة في تشكله ,وذلك لتغييره حضاريا ومعرفيا ,وفهم الأنساق التي تشكل في إطارها وتأسست علاقاته ضمنها,مما يفضي إلى وجود بنية متشابكة من المفاهيم التي يعتبر الفرد كمعطى واحدا منها .

وعليه وجب على هذا الفرد أن يتفهم حقيقة وجوده بدءا من معرفة حقيقة ذاته ونقدها . وقد سيطر الفكر الأبوي على بنية الأسرة التقليدية والعشائرية وظلت المرأة تابعا للرجل في النسق التراتبي .

وقد تأكدت هيمنة الذكورة وفق التنظيم الاجتماعي والبيولوجي المتفق عليه في شكل العلاقات الاجتماعية والأسرية حيث (تجد الهيمنة الذكورية إذا كل الظروف مجتمعة لملء ممارستها ,والحضور المعترف به كونيا للرجال يتأكد في موضوعية البنى الاجتماعية ونشاطات الإنتاج وإعادة الإنتاج والقائمة على تقسيم جنسي لعمل الإنتاج البيولوجي والاجتماعي)[29] ,حيث تسند للمرأة أعمال تتناسب وتركيبتها الفيزيولوجية ,إلا أن هذا التقسيم لا يمثل في الحركة النسائية المعاصرة مشكلة فجوهر السلطة الذكورية معرفي , يبدأ من اللغة بالدرجة الأولى كونها تمثل المحمول المعرفي لأنماط التفكير ,وهو الأمر الذي غيب المرأة عن إنتاج الثقافة ,وجعلها مطموسة الهوية, وأفقدها الحضور الأنطولوجي واللغوي وجعلها مسيجة بفكر دوغمائي (إن فعل الكلام هو التفصيل "الدلالي" لمفهومية الكينونة —معا ,والتي تقف أبدا في نطاق شكل معين في الكينونة —الواحد–مع–الآخر وفق انشغال ما)[30],باعتبار أن اللغة في المخيال الاجتماعي إنشاء ذكوري ,ولم تكن الأنثى فيه إلا تابعا ,بمعنى أن الدال ذكري والمدلول أنثوي.

والأمر (الذي حدث هو غياب الأنوثة التام عن التاريخ ,لأنها غابت عن اللغة وعن كتابة الثقافة ,وتفردت الفحولة باللغة ,فجاء الزمن مكتوبا ومسجلا بالقلم المذكر واللفظ الفحل)[31] , وما دلالة البحث عن ذاكرة لغوية أنثوية إلا دليل على أن المرأة تدرك أن الرجل سيطر معرفيا على البنية اللغوية ,وضمنها سلطته الذكورية الرمزية ,وجعل إنتاج المعرفة مقتصرا عليه ,وضمن حدوده الحاضنة لمنطق تصوره .

وختام القول ,وجب حسب تصور دعاة النسوية مراجعة الحركية البنائية التي أنتجت هذا الحضور/الغياب, حضور الذكر وغياب الأنثى,حضور المركز وغياب الهامش ,وفي الحقيقة فإنه لا يكفي فهم البنية الذهنية لتحولات المجتمع ,بل وجب مراجعة المؤسسة الثقافية ومرجعياتها,وفي هذا المجال(ينادي دعاة حركة التمركز حول الأنثى بضرورة إعادة سرد التاريخ من وجهة نظر أنثوية)أي متمركزة حول

الأنثى)[32], وهو الأمر الذي سيخلق مركزية جديدة ,وتظل فكرة الثنائية الضدية مهيمنة على الخطاب التحرري ,وهو ما سيقلب التصور ويتحول المركزي إلى هامشي والعكس .

وعليه فإن هناك تمايزا وانفصالا بين الحضور(المركز) والغياب (الهامش) , ويظل الأول يؤسس دائما لفكرة الإقصاء والتأجيل , باعتبار أن الغياب مؤجل ,ولهذا (كانت استراتيجية دريدا تتحدد في السعي إلى تقويض أي سلطة يمكن أن تشكل مركزا خارجيا تتم الإحالة إليه ,ليضمن الحقيقة, ويمنح الأفكار معناها وقيمتها ,فإنه يسعى إلى تأكيد استحالة الحضور ,وستكون الكتابة هي الوسيلة التي سيتوسل بها لـ(("تمزيق)) هذا الحضور)[33],إذ لا تنبني فكرة الأنثوية وفق مبدأ الإلغاء والإقصاء ,وإنما من خلال فهم الوجود الحقيقي للأنثى كفاعل تاريخي ,له إسهام فيه ,وحضور بنائي فعلي .

هوامش:

1- عبدالله إبراهيم,المطابقة والاختلاف , بحث في نقد المركزيات الثقافية, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت,لبنان,ط1, , 2004, ص 17.

2- المرجع نفسه, ص17.

3- أوماناريان وساندرا هاردنغ , تر: يمنى طريف الخولي ,نقض مركزية المركز ,الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات بعد- استعماري ونسوي , ج1, عالم المعرفة, ,ع 395 , ديسمبر 2012 , ص11.

4- سعد البازعي وميجان الرويلي, دليل الناقد الأدبي,الدار البيضاء, المغرب :المركز الثقافي العربي,ط3 , 2002, ص329.

5- هشام شرابي , النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين ,مركز دراسات الوحدة العربية,بيروت , لبنان,ص93

6- كريستا نلوولف , تاريخ النقد النسوي , تر: فاتن موسى , موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي , القرن العشرون المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية, المجلس الأعلى للثقافة , القاهرة ,2005,ط1, ص 313.

7- عبدالله الغذامي , المرأة واللغة , المركز الثقافي العربي , بيروت , لبنان , ط3 ,2006 , ص7.
8- بيير غيرو, سيميولوجيا الأنوثة, تر: محمد الرضواني, مجلة علامات في النقد , عدد 20 ,أفريل, 2003, مكناس , المغرب , ص110.
9- عبدالله إبراهيم , السرد النسوي , الثقافة الأبوية, الهوية الأنثوية والجسد, المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت, لبنان , ط1, ص102.
10-المرجع نفسه, ص 103.
11-علي صديقي, التفكيكية :تقويض ميتافيزيقا الحضور وفكرة الأصل , مجلة الأزمنة الحديثة , مطبعة المعارف الجديدة ,الرباط , المغرب:, العدد 6- 7, 2013 , ص 195.
12-الغذامي, المرأة واللغة ,ص 27.
13-فريال جبوري غزول,البنية والدلالة في ألف ليلة وليلة, مجلة فصول, الهيئة المصرية العامة للكتاب ,القاهرة ,مصر, مجلد12 ,عدد4, 1994, ص78.
14-عبدالله إبراهيم ,موسوعة السرد العربي 2, المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت, لبنان,2008 ,ص 379.
15-عبدالله إبراهيم, السرد النسوي , ص19.
16-عبدالله إبراهيم ,القبيلة والقبائلية أو هويات مابعد الحداثة, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, المغرب, ط2, 2009, ص14.
17-مارتن هيدغر , الوجود والزمان, تر: فتحي المسكيني , دارالكتاب الجديد المتحدة, بيروت, لبنان: ط1, 2012 , ص 63.
18-دافيد لوبروتون, سوسيولوجيا الجسد , تر :عياد أبلال وإدريس المحمدي, القاهرة ,مصر,ط1, 2014, ص59.
19-عبدالله إبراهيم, السرد النسوي , ص26.
20-عبدالله إبراهيم, موسوعة السرد العربي , ص287.
21-عبد الوهاب المسيري , قضية المرأة بين التحرير.. والتمركز حول الأنثى , نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع, مصر, ط2 , 2010 ,ص20.
22-المرجع نفسه, ص22.
23-حسين المناصرة , وعي الذكورة والمرأة, مجلة فصول, الهيئة المصرية العامة للكتاب,القاهرة , مصر,عدد 66, 2005, ص 183.
24-يمنى طريف الخولي ,النسوية وفلسفة العلم, مجلة عالم الفكر ,المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, الكويت ,مجلد 34, عدد2, أكتوبر- ديسمبر,2005, ص12.

25- سارة جامبل, النسوية ومابعد النسوية ,(دراسة ومعجم نقدي), تر:أحمد الشامي, المجلس الأعلى للثقافة ,القاهرة ,مصر,ط1, 2002, ص 22.
26- سعد البازعي وميجان الرويلي, دليل الناقد الأدبي,ص151.
27- المرجع نفسه ,ص151.
28- هشام شرابي, النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين ,مركز دراسات الوحدة العربية ,بيروت ,لبنان,د ط, ص 93.
29- بيار بورديو,الهيمنة الذكورية, تر: سلمان قعفراني ,مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت , لبنان, ط1, 2009, ص 60.
30- مارتن هيدغر,الوجود والزمان, تر: فتحي المسكيني دار الكتاب الجديد المتحدة ,بيروت, لبنان, ط1, 2012, ص 313.
31- الغذامي, المرأة واللغة, ص 11.
32- عبد الوهاب المسيري, قضية المرأة بين التحرير.. والتمركز حول الأنثى, ص22.
علي صديقي, التفكيكية :تقويض ميتافيزيقا الحضور وفكرة ,مجلة الأزمنة الحديثة, ص192.